من هنا وهناك

مصطفى عبد الرازق فقيد العاطفية الذهنية

رزئت مصر ورزئ العالم الاسلامى فى فذ من أفذاذها القلائل بوفاة الشيخ مصطفى عبد الرازق ، فجزعت فيهما عليه القلوب ، ورثاه فيهما صفوة من أصدقائه ومريديه . لكن مدركا بشريا ممتازاً أفسح أركاناً من مصر وأبعد مدى من العالم الاسلامى قد هلع لوفاة مصطفى . وأنا من الذين كتب لهم أن يقفوا على بعض جوانب اتصال ذلك المدرك بالفقيد ، فجئت أذكر هذا الاتصال وأسجل ذلك الهلع على فقده ، والمدرك الهالع إنما هو مدرك « العاطفية الذهنية » .

عرفت مصطفى منذ عهد الشباب أيام كنا نحصل العلم بباريس ، وتوثقت بيننا عرى الأخوة طوال السنوات التى ترددت خلال أصبوحة كل يوم من أيامها وأمسيته على داره ودار آله حيث اكتملت مصريتى المتعقلة فيما كان يختلف عليها من عديد البيئات ومتنوعها ، بعد أن نشأت بين جماعة الطلبة المصريين بباريس ثم تدرجت فى نادى المدارس العليا بالقاهرة .

ولقد تعرفت فى مصطفى منذ عرفته روحه الشعرية متلألئة خلال ما كان يصدر عنه من إشعاع يفعل فعله الأخاذ فيمن يقتربون منه أو يتصلون به . كما تعرفت فيما بعد أن نفسيته — وقد امتزج فيها قلبه بذهنه — قد انطبعت بطابع الشاعر الفيلسوف ، فخلا لى دائماً أن ألقبه « بموسيه مصر » على تميزه بأن رفعة إحساسه ورقته لم يدخل فيهما عامل من عوامل المرانة والاكتساب بل كانتا من خصائص طبيعته الأصلية المتجلية .

ولذلك فلشد ما كان ألمه يوم قسرته اعتبارات الأسرة التقليدية على أن يتولى منصباً تحده فيه القيود ، وهو المنطلق ، ويخضعه للعمل الآلى وهو المحلق فى سماء الوحى والالهام . على أنه لم يرض أن يقيد ولم يرض أن يخضع ، فكان يبادر ، بعد أن يفرغ من ساعات عمله بادارة المعاهد ثم بوزارة الحقانية إلى التناجى والاستلهام والكتابة ، ولقد حظيت بمشاركته فى بعض مقطوعات قصيرة نشرتها لنا « الجريدة » بتوقيع «اثنان» ، ولكن

حظوتى الكبرى كانت باستماعى إلى كثير مما دون وما لم ينشر بعد ، وقد تجلت فيه آيات الاحساس والابداع .

وسيعرف الناس يوم يكتب لتلك المدونات أن تنشر كيف ظلمت المقادير مصر والعالمين العربى والاسلامى إذ عرجت بمصطفى عن طريق عبقريته الواسع إلى درب الوظائف الضيق فحرمتها جميعاً خير النتاج الروحى والفنى . وقد فهم هو فرحى يوم تولى كرسى الفلسفة الاسلامية بكلية الآداب ، وفهم غضبى يوم ترك هذا الكرسى ليتولى منصب الوزارة ، كما فهم جزعى على صحته يوم أسندت إليه مشيخة الأزهر ، فتمثلت متاعبه التى لم تحتملها روحه الرقيقة السابحة .

هلعت « العاطفية الذهنية » لوفاة مصطفى . وقد أردت تسجيل هلعها وأنا أعرف أن مدركها ليس من مدركات هذا الجيل المفضلة ، ولكنى أناجى به جيل ما قبل الحرب العالمية الأولى ، وأذكره لأولئك الذين أخذوا معنا فى السربون وكوليج دى فرانس بتعاليم برجسون وكروازيه ودوركايم وليفى برول ، وعلى هؤلاء وعلى مصطفى الحزن الأليم .

كلارا عزمى

جولة مستطلع

معرض للآثار الإسلامية *

يتوهم المتوهم أن الفن العربى الاسلامى ينحصر مداه بين تلك الخشبات المتداخلة والرخامات المحفورة والزجاجات الملونة والطنافس المزهرة والقباب المنحوتة وما يجرى مجراها جميعاً ، وأن هذه الألوان متقاربة متشابهة ، إنما تصدر عن مبدإ واحد وتنتهى إلى غاية هى هى ، وأنها فى الجملة ضرب من البراعة أو الرشاقة ، ليس للشعور أصل فيها ولا للفكر مدخل إليها . والحق أن الفن العربى فى عهوده الوضاءة غنى بالأنواع والأشكال ، مترع بالاحساسات والمعانى ولا سبيل إلى كشف هذا إلا من طريق التصفح والتأمل .

هذا ، ولم تنشئ الدولة دار الآثار

* أنظر ص. ٧٢٨، ٧٢٩ . من تصوير المتحف العربى .

العربية عبثاً ، فذلك هو الغرض من الانشاء . فأحسن بالأستاذ المستشرق جاستون فييت مدير الدار إذ يفطن لهذه الحقيقة ، فلا يقعد عن تهيئة المعارض السنة بعد السنة ، فيدفع إلينا متعة متواصلة فيها رقة وفيها بعد : تتلاحق إزاء أعيننا النهمة ألطف الآثار وأروعها فى نماذج مختلفة ومذاهب متفاوتة وعهود متباينة . ووراء كل ذلك تبصير وتهذيب وتثقيف .

ومعرض هذه السنة مجرى على نمط جديد ، إذ يضم نفائس يبلغ عددها نحواً من مائة وخمسين إنما كلها مطوى عن الأبصار غير منشور للجمهور inédits . وعهود هذه النفائس تتردد بين القرن السابع والقرن الخامس عشر للمسيح ، والنفائس منتقاة من مجموعات خاصة كالتى لصاحب السمو الأمير يوسف كمال ولصاحب المقام الرفيع شريف صبرى باشا وللمرحوم على ابراهيم باشا ولحرم أسعد باسيلى باشا والسادة جاك ماتوسيان ور. عدس وبنسيلوم .

وأغلب هذه النفائس أوان من الخزف الايرانى وهى تنقسم قسمين : أحدهما عتيق مصدره البلاد الواقعة شمالىّ إيران ، والآخر مستحدث بعض الاستحداث موطنه مدينة قاشان التى عُرفت بغضائرها التى تدعى «القاشانى» أو « القاشى » فى لغة العامة على حد قول ياقوت فى « معجم البلدان » .

و يمتاز الخزف الايرانى بالتزويق المستدق المستغرب ، قد تخيله صاحبه التفافاً مرتعشاً ثم دس فيه برفق ألواناً نابضة قد تجد فى الذى اشتد منها مثل التموج الذى يبهرك فى الحجارة الكريمة وأما القاشانيات فهى أروع مظهراً وأدخل فى الصناعة المحكمة ، ولكنها ليست بذلك ألطف ولا أتم . و إنى أوثر سذاجة الأولى كأنما خشونتها تجذبنى أو كأنى ألمح فيها البداوة ونقاوة الفطرة .

وفى المعرض ، إلى جنب الخزف ، ألوان من النحاس والحلى والقصدير والنسيج تزينها الدقة فى العمل والحسن فى الصياغة والبراعة فى التأليف والحذق فى الحبك . ويلى هذا كله قوارير وكؤوس من الزجاج ، إذا نظرت إليها وبدا لك أن تطيل النظر سرحت كأنك تحلم حلماً ، وذلك للرقة الفائقة التى فى المينا وللخطوط الزخرفية التى تتعانق فى بطونها ورقابها تعانقاً ناعماً بل مفاجئاً .

والحق أن سر الفن العربى الاسلامى فى الزخرفة . ولى فى هذا حديث هيأته فى اللغة الفرنسية أجمل طرفاً منه ههنا فأقول : إن الزخرفة

١ — طبق من الخزف المطلى . ذو زخارف متداخلة .
الألوان الغالبة : الأسود والأصفر الذهبي . نيسابور . القرن ١٠
الارتفاع ٥ ، القطر ٢٠ . (من مجموعة جاك ماتوسيان .)

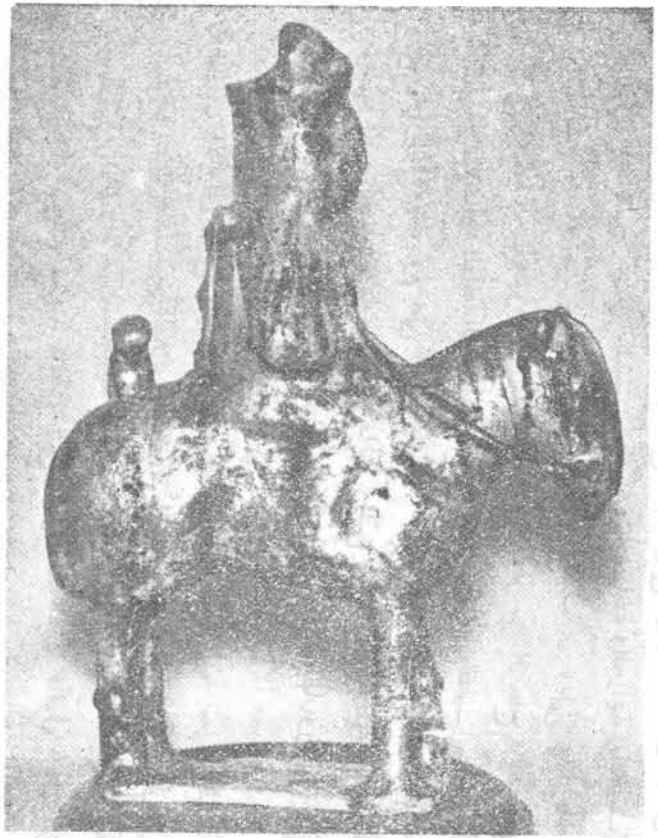

٢ — تمثال فارس يتدلى ترسه خلف ظهره .
من الخزف المطلى بالأزرق الفيروزى . الرى . القرن ١٣ .
الارتفاع ٢٦ ، القطر ٢٢ . (من مجموعة ر . عدس .)

٣ — سلطانية من الخزف ذى البريق المعدنى .
الألوان : الأبيض والبنى . قاشان . القرن ١٣ .
الارتفاع ١٠ ، القطر ٢٢ . (من مجموعة ك . عدس .)

٤ — قارورة من الزجاج المزركش بالمينا .
الألوان : الأحمر والأزرق والأبيض . مصر . القرن ١٤ .
الارتفاع ٣٢، القطر ١٧ . (من مجموعة الأمير يوسف كمال .)

العربية الاسلامية ليست من الاتجلل فى شئ . فمن الخطأ الشائع أن يظن أحد أنها وليدة العبث . فان هـذه الزخرفة مشتقة اشتقاقاً من العقيـدة الاسلامية . فهى منطقية بل واجبة . ومن الخطأ كذلك أن يمتد الظن إلى أن العرب المسلمين عدلوا عن تصوير الأشكال الحية بسبب التحريم الذى ورد فى الحديث فمالوا إلى الزخرفة . فان التحريم لم يوجه الفن العربى إلا بعد نكبة التتر، قاتلهم الله ! والدليل ما وصل إلينا من الآثار القديمة التى مثلت فيها صور الأحياء ، بل الصواب — عندى — أن الزخرفة فى الاسلام وما يأخذ مأخذها أو يدخل تحتها مثل الاقتضاب فى التخطيط إنما انبعثت من التصورات الدينية ، ومن هنا طرافتها وقوتها ثم تأثيرها فى التزاويق التى تزين طائفة من الآثار المسيحية سواء فى مصر والشام أو فى بيزنطة وإسبانية.

وبعد ، لا يسعنى إلا أن أشكر للأستاذ المستشرق ج . فييت إقامة هذا المعرض اللطيف وأهنئه بنجاحه وأهنئ كذلك الأستاذ حسين راشد والدكتور محمد مصطفى أمينى الدار . فقد ألهمنى المعرض وألهم غيرى ، بفضل ما ضم من أصناف الألطاف ، صوراً وفكراً تهز وتلذ .

فى المعرض الدولى للفن الحديث

هذا المعرض الذى أقيم الشهر الماضى فى القاهرة دل على أمرين سأقصر الكلام عليهما .

أما الأمر الأول فسلطان التصوير الفرنسى الحديث على قرائح المصورين كلهم وعلى مراقمهم أيا كان موطنهم. ولا عجب فى هذا ، فمعلوم أن باريس كانت منذ منتصف القرن الماضى مظهر المذاهب الجديدة فى التصوير تمثلاً وتفكراً وتأدية . وليس هنا مجال تبيان ذلك . وظلت باريس طوال قرن أو يزيد قبلة أهل الفن . ويؤيد هذه الحقيقة ما مثل لنا فى هذا المعرض . فليس فى التصاوير الزيتية التى للبلجيكيين والانجليز والأمريكين غيرهم مأتى جديد ولا منحى غريب ، فى الجملة . والفرنسيون أنفسهم لم يخرجوا عن أساليبهم ولا عليها ، فلا تزال طرائقهم هى إياها لم يطرأ عليها تبدل حتى انحراف قد يحدث من جراء الحرب التى عانتها أوربة أشد المعاناة ، فكأن

الوعى الباطن لم يتحرك بعد ، تحركه فى ناحية من نواحى الأدب .

على أن الحكم لا يسير إلا على الذين عرضوا من المصورين الفرنسيين فهنالك أساتذة مثل Matisse ، و Léger ، و Gischia لم يرسلوا إلينا بشئ أو مثل Braque و Rouault و Picasso قنعوا بعرض تخطيطات ، وليست تخطيطة بيكاسو Picasso [1] بشئ إلى جنب ألواحه المشهورة .

ولا يسير الحكم كذلك على مصورى البلدان التى لم تشارك فى المعرض ، نحو إسبانية و إيطالية وألمانية ، وكانت هذه الثلاث — ولا سيما الأولى — تأخذ من فرنسة وتعطيها أيضاً ، فهل ننسى أن بيكاسو صاحب المذهب « المكعبى » cubisme إسبانى المولد والنشأ ، وأن المذهب « الاستقبالى » futurisme ولد فى إيطالية سنة ١٩١٠ ، وأن Kandisky الروسى اجتهد فى ألمانية وفيها نشر كتابه « الروحانى فى الفن » Ueber das Geistige in der Kunst (مونيخ سنة ١٩١٢) حيث حرر النشاط الفنى من التقليد وأدخله فى حيز المدكارت بالبصيرة .

هذا و إن كان التصوير الفرنسى غالباً على المعرض الذى بذلوه بالغاً الذروة فى الفن جملة ، فان المنسوجات الفرنسية لم أنشط لها قط . هذا قول قد يدهش ناساً ويثير ناساً ، بل قد يجر على صفة الجهل أو البلادة . ولكننا نحن أهل هذا الشرق وُلدنا على تلك الطنافس والنسائج الفارسية والأرمنية والتركية وصاحبناها فعرفنا بها كيف يكون ائتلاف الرسوم وهدأة الألوان وحلاوة الأصباغ ونعومة الأصواف . أما هذه التاليف المستجلبة التى فى المنسوجات الفرنسية ، وهذه الألوان العنيفة والأصباغ المتنافرة وهذه الأصواف التى لا تتموج ولا تتطوس ، كيف تأخذ أعيننا وتفرح أنفسنا وترضى أذواقنا وتبعث متخيلاتنا .

ذلك هو الأمر الأول . وأما الثانى فان القسم المصرى حقيق بالالتفات . وقديماً بينت رفعة التصوير والنحت عندنا بفضل أفراد ، وعللت تقدمهما على سائر الفنون كالشعر والمسرح . والحق

---

(١) نشرتها الآنسة أمينة طه حسين فى تضاعيف المقال الوافى اللطيف الذى خرج هنا الشهر الماضى .

أن التصوير فى هذا القسم يرجع فى أكثر جزئياته إلى مختلف المذاهب الفرنسية المعاصرة . فهذا يمضى على أسلوب Roger de la Fresnaye وهذا فى طريق « الضوارى » Les Fauves وهذا فى جهة Dufy الذى يصور مثل طفل ، وهذا لا يزال متشبثاً بالقواعد الأكاديمية . ولكن فى القسم ، إلى جنب براعة إمى نمر ومحمد ناجى وسعيد حامد الصدر ومحمد حسن وأحمد صبرى ، ترى إستحداثاً تستطيع أن ترده إلى الجو المصرى . وهو متأثل لك فى ألواح محمود سعيد التى عملها بين ١٩٣٠ و١٩٣٨ حيث التأليف القائم على إيقاع كأنه من نقر الطبل أو نفخ الزمر ، وحيث اللون النحاسى المسلول من رفيف البشرة المصرية سفعتها رياح الصيف . وهذا الاستحداث فى تماثيل مختار أيضاً ، فكأنها تلف فى ثناياها سرّ تربتنا الخالدة .

تكريم خليل مطران

لأربع وثلاثين سنة خلت كرمت الأقطار العربية شاعرها المتفنن المتصرف خليل مطران . وجرى التكريم فى مصر بمهمة الأديب سليم سركيس رحمه الله . وقد اشتركت فيه الحكومة المصرية وأدباء مصر ولبنان وسورية . وفى ذلك اليوم رصن النثر وشرف الشعر . وما كنت لأحضر التكريم إذ كنت طفلا ، ولكنى قرأت بعدذلك ماقيل فوزنته .

ثم فى هذا الزمن أدرك نفر من أعضاء النادى الشرقى القائم فى القاهرة أن الخليل لا يزال حقيقاً بعناية الأمم العربية . وما أجمل ما أدركوا وما أصوبه ! فخطر لهم أن يكرموه مرة ثانية وقد أرادوا أن يكون التكريم ضرباً من ضروب الهتاف ، فاستقامت الفكرة وزاغ السلك وعذرهم أن مفهوم الأدب الخالص ليس فى متصوراتهم .

قرأت النثر الذى قيل سنة ١٩١٣ : كلمة الريحانى التى عنوانها « هجروها » وكلمات زيدان وجبران ومى وأنطون الجميل ، وكلها ماثلة حتى اليوم فى خاطرى . وقرأت الشعر ، ولا أزال أروى منه درراً . قال حافظ بعد أبيات تندى رقة وتطفر خيالا ، تمثل فيها روضتين تتناجيان :

فاذا لهجتان من لهجات الشر
ق قد شاقتا فؤادى فهاما

تلك سورية تفيض بيـــاناً
تلك مصرية تسيـــل انسجاما
فطنـــة عنـد رقة عنـد ظرف
عند رأى تخـاله إلهـــاما
ورأى الزهر ما رأيت فظن
الشمس رأد الضحى فشق الكماما
وسعى بالأريج والنفح والطيب
وأهدى عن الرياض السلاما

وإذا الشاعر يسمع الروضـــة المصرية تقول لأختها السورية :

قد سمعنـا خليلكم فسمعنـا
شـاعراً أقعد النهى وأقاما
وطمعنا فى شأوه فقعـــدنا
وكسرنا من عجزنا الأقلاما
فمشى النثر خاضعاً ومشى الشعر
وألقى إلى الخليل الزماما

وقال شبلى الملاط يخاطب الشعر:

تتلامس الأرواح فيك وتشتكى
عند التفرق ثقلة الأجســـام

من قصيدة مطلعها :

لشت إلى الأهرام أرض الشام
لوتستطيع جوى إلى الأهرام

وفيها يقول للخليل :

أما أنا فبلطف روحـك شـاعر
والشوق شوق والهيـــام هيامى
فاذا سمعت النوح فهو صبابتى
و إذا استطبت الريح فهى سلامى

ثم قال شوقى و إسماعيل صبرى وحفنى ناصف والخليل نفسه ما قالوا من محكم الشعر وجيده .

ذلك ما قرأته . أما الذى سمعته من أيام فى دار الأوبرة الملكيـــة (٢٩ مارس ١٩٤٧) وقد نشرته صحف ومجلات ، فلا أذكر منه الساعة سوى كلمة وزير المعارف عبد الرزاق السنهورى الذى اجتهد فوصف ودقـق فبلغ ، وكلمة أنطون الجميل وقد أرادها خفيفة ترقص فيها الذكريات النواعم وتتعانق ، وسوى أبيات انطلقت فى قصيدة عبد الرزاق محيى الدين مندوب الحكومة العراقية .

أقول إن أصحاب فكرة التكريم أحسنوا النية وإن المتكلمين من خطباء وشعراء دلوا على نبل ومروءة . ولكن الحفلة لم يجدر بها الخليل إلا بدءاً وختاماً : أما البدء فبالرعاية الملكية السامية ، وأما الختام فبشكر الخليـــل وكأنه — حفظه الله — تفطن للشعر الذى سيقال فيه فجاءت قصيدته بلاغة مقتضى المقام .

نحن الأدباء إنما نعد هذا التكريم تحية لطيفة شريفة هيأها نفر من

الناس ودعوا إلى المشاركة فيها طائفةً من الناس ، والفريقان ممن يسيل فى شمائله ماء الكرم . نحن الأدباء أدرى بخليلنا فهو أستاذنا وضريبنا وحبيبنا . فكيف لا يتكلم ، إلى جنب بعض المتكلمين ، لطفى السيد وهوالذى عاصر الخليل وعاشره ، وطه حسين وهوأول من جرؤ على غير استجراء فقال فيه إنه أكبر شعراء العصر ، ومحمود عزمى وهو البصير بسعى الخليل الصحافى العربى ، والمازنى وهو الذى أدرك بفضله أن شعرنا قابل للتجديد، وأين هذا وهذا من أدباء مصر ولبنان وسورية ؟ وكيف لا يتحدث نثراً أو شعراً من أخذ عن مطران وتأدب عليه واغترف من فيضه واهتدى برأيه : أليس أحب إلى الخليل أن ينهض أحد من مدرسته ، كما تقول اليوم — فيعلن فضله من أن ينشده قصيدة شاعر لا ينفك يقطع أبيات على طريقة بادت أو شاعر قد أصفى أو شاعر قد جف ؟ ثم أين الذى تكلم فى مطران الناثر المتمكن واللغوى المتعمق؟ وهل تعجب متكلم أن مطران لا يزال مبعداً عن المجمع اللغوى .

ليست غاية التكريم تصفيقاً . إن تكريم الأديب الفحل يكون بالنظر السليم فى آثاره مع استخراج طرائفها ودقائقها وخصائصها مع ألوان أثرها . وما أغنى مطران عن التصفيق وما ألصقه بقلوبنا نحن ! نقدره حق قدره ونحبه ونجله . فهل يوفيه حقه الأدباء فى هذه المجلة الموقوفة للأدب الصرف ؟

معرض الكتاب اللبنانى

ذلك معرض لم نعرف أول الأمر حقيقة شأنه . أمعرض هو للكتاب المطبوع فى لبنان أم للكتاب الذى يؤلفه لبنانى . أليس غريباً أن يختلط الأمر على المستوضح . أما سبب اختلاطه فأنك ترى جنباً إلى جنب كتباً للبنانيين أمثال ميخائيل نعيمة مطبوعة فى القاهرة وأخرى للبنانيين أمثال الفاخورى مطبوعة فى بيروت ، وثالثة لمصريين منحدرين من قريب أو بعيد من أصل لبنانى ، مطبوعة فى القاهرة . وأغرب من هذا ومن ذاك أنك تجد كتباً لغير اللبنانيين أصلا وفرعاً لسلامه موسى وهو مصرى قح وآخر ، نحو كتاب لقسطنطين زريق وهو فى السلك السياسى السورى .

خلط عجيب ! أتدرى ما وراءه؟ الاعلان المحض ، إعلان جماعة من الوراقين من هناك ومن هنا أيضا ، وربما لم يستأذن المؤلفون فى عرض مؤلفاتهم كأنما هم أدوات كتابة ، وقد اشمأز أحد مؤلفينا من ذلك التطاول فتقدم إلى صاحب العرض برفع كتبه فرفعت .

أهذا هو الكتاب اللبنانى ؟ بضعة مطبوعات ليست نقطة من بحر ، بل هى نقطة غامضة من بحر زاخر : بحر التأليف اللبنانى . حقاً إن من يتجر بتأمل المفكرين وجهد الباحثين وصبابة الشعراء وثقافة النقاد قد يغره الاقدام أحياناً .

وأعجب من هذا أن الزائر للمعرض يفاجأ بنشرة عنوانها « الكتاب اللبنانى » فيها سرد عجل لمجموعة من الكتب المطبوعة هنا وهناك وهنالك ، وقد ألفها كتاب وشعراء لبنانيون وسوريون ومصريون . وإنما الغرض الظاهر من إذاعة هذه النشرة هو استعارة اسم لبنان لترويج مطبوعات تزين مكتباً أنشئ لتوزيع الكتب اللبنانية وغيرها فى القاهرة .

ولا بأس أن ينشأ مثل هذا المكتب ، بل أقول إن إنشاءه واجب ومرغوب فيه . ولكن لا تحسن الدعاية على مثل هذا النحو . فكان أولى أن يقصر أصحاب هذا المكتب وأصابهم من الوراقين عرض الكتب حتى يتجرون بها وأن يكون المعرض باب المكتب دون غيره وبين جدرانه فاننا لا نرضى للثقافة اللبنانية أن تموه فى مصر . أمن المعقول أن يقام معرض للكتاب اللبنانى غير مرتب على تسلسل تاريخى أو ترابط فكرى أو تناسق مطبعى ؟ أمن المعقول أن تهمل تآليف الشدياق والشرتونى و إبراهيم اليازجى واسكندر المعلوف وأمين الريحانى وعبد الله العلايلى ونظرائهم من علية الكتاب وصفوة الباحثين ؟ أو من الجائز أن يغفل غافل عن دائرة المعارف للبستانى وعن مجلة الجنان ثم مجلة الأديب التى تكافح فى سبيل الأدب الخالص أى كفاح رعاها الله وأبقاها ، ثم أين مجلة المكشوف ومجلة الطريق وغيرهما مما يعمل فى جهد وثبات ؟ لم أصب ذلك كله فى المعرض وإن ذكر بعضه فى النشرة .

إن فى أدباء لبنان وعلمائه من يستطيع أن يقيم فى مصر معرضاً للكتاب اللبنانى يكون غاية فى الروعة والحسن .

بشر فارس